صور من الحياة :

خاتمـــة قصة

للاستاذ عمر عودة الخطيب

« كتب الأستاذ كامل محمود حبيب فى الرسالة الغراء(١) قصة امرأة خانت زوجها الذى أحبها ، وحدب عليها ، ولم يستمع لنصيحة أبيه الشيخ بها ، وترك الأستاذ الفاضل بطل القصة ذلك الزوج الخائب حائر النفس قلق الفؤاد ، لا يستطيع أن يلقيها إلى الشارع مخافة أن يحرم أولاده الأمان والسعادة والراحة ولا يستطيع أن يستبقيها لديه وقد خالفت إلى غيره وطعنته فى قلبه وشرفه وقد دعا الأستاذ قراء الرسالة أن يبعثوا إلى هذا الحائر المذنب بأشعة من الرأى السديد والفكرة الصائبة ، لعله يتبين على ضوئها الطريقة السليمة والخطة الحكيمة وقد رأيت أن أسهم فى الحديث عن هذه القصة المؤثرة ، فجعلت رأيى فيها خاتمة لها ، فلعل بها تحل هذه العقدة العسيرة ويشهى هذا الصراع الأليم ولعلها بعد هذا ترضى الأستاذ الفاضل كامل وقراء الرسالة الغراء . »

قال لى صاحبى : وعشت أياماً شداداً ، أقاسى فيها حسرة الندم ، ولذعة الألم ، أتجرع مواطن الخلوة ، وأتجرع مرارة الخيبة وانطويت على نفسى ، وحرت فى أمرى ، وعزفت عن الدنيا والناس وأصبحت حليف القلق والأسى ، وكنت كلما رأيت عدوتى الخائنة يتفجر السخط فى قلبى ، ويخيم المقت على روحى . .

وكنت كلما رأيت أولادى ، أحس بقلبى يكاد يختنق بأشجانه ، وبروحى تكاد تفارق جسدى ، فتلك عدوة لابد منها لهم ... ولكن ... كيف لى بالاحتمال وأوحال العار تلطخ بيتى ! . وإنى لأرى كل شىء فى البيت يثب فى وجهى ثائراً محذراً ... ويلتاه ! . أيها خليفة الشيطان الرجيم ، وقطعة من نار الجحيم ، فماذا أصنع ؟! . ولم أهتد إلى الرأى السديد والحجة الواضحة ، وكنت كمن ألقى به فى لجة صاخبة ؛ وأمواج هائجة ، وقد أثقلته النكبة ، وأذهلته الصدمة ، فزاغ بصره ، وضاع صوابه ، فرحت يا صاحبى - أصارع الهموم والأحزان ، وأدرأ عن نفسى هذا البلاء واسعى إلى الخلاص دون أن أصل إلى الشاطىء . . . الشاطىء الذى يريحنى من هذا القلق الشديد ، والحيرة القاتلة ، وينقذنى من هذه اللجة الصاخبة التى غمرتنى أمواجها فكدت أغرق بها... وكنت كلما خلوت إلى نفسى - وما أكثر ما أخلو إليها - ادير فى رأسى أفكاراً شتى ، وتتنازعنى آراء جمة ، فتارة يدلى لى العقل بالرأى الصليب ، والأمر الشديد ، فيجزع قلبى وينهار . . وطوراً تترجم العاطفة عما فى القلب من حنان ورقة . . فأكاد أستسلم للواقع رعاية للاولاد الأحبة ، ووفاء للحب القديم ، فيسخط العقل ويثور ويهدد . . وأنا - يا صاحبى - ميدان هذا الصراع ، تفنيهنى هذه الأفكار ، وترس فى روحى هذه الوساوس ...

(١) فى العددين ٨٦٥ و ٨٦٦

من غير إملاء ولا سيطرة . فالحكمة هى حكمة صاحبها وحده ويستطيع بنفسه أن يتوصل إليها وأن يباشرها بإرادته ... والسبب الثانى هو أن مجال الاطلاع على آراء الناس ومعتقداتهم متاح لك فى كل كتاب يبغي الاصلاح ويريد الارشاد ويعمد إلى التوجيه . أما سبيل المتانة وطريقة المحافظة على الآراء الفردية فقلما يطرقها كاتب . ولذلك حاولت أن أقدم لك شيئا متصلا بالصورة والشكل الخارجى فى الحكمة ولا يتعداه إلى المضمون والفحوى . وأعتقد أننا محتاجون إلى من يشعرنا بكرامة العقل أكثر من احتياجنا إلى من يملأ العقل ، وأن المناهج تلزمنا أكثر من المواد . أو بعبارة موجزة إننا أشد حاجة إلى البطاقة المكتوبة على زجاجة الدواء منا إلى الدواء نفسه .

حكمتى ... ها أنذا أفتح لك عقلى فاكفنى به ، وها أنذا أنير لك السبيل إلى ضميرى فادخليه ، وارع قلبا هام بالقداسة قبل أن يرتمى فى أحضان الرذيلة ... ولا تأخذى عليه أخطاء المجرم القاصد ولا تحاسبيه حساب الفاسد المطبوع ، بل أنظرى إليه كما تنظرين إلى الشخص المنكود الذى يطيش السهم فى يده وتفلت المقادير من بين أصابعه فلا تترك له غير ذل العبرة وكيد الماضى ومرارة الذكريات .

عبد الفتاح الديرى

يقول لى القلب ـ وآه من هذا القلب ـ انها ـ يا صاحبى ـ نجية نفسك ، وترب روحك ، وضياء بيتك ومهوى فؤادك ، . . أجل حبيبتى ، أنا قلبك الرقيق الوفى . . ذقت معها مذ عرفتها أطيب ساعات العمر ، وأحلى أيام الشباب ، ألم تكن تحزن لحزنك وتفرح لفرحك ، وتغمرك بحنانها وعطفها . وتشيع فى روحك الأنس والنور ، وفى بيتك السعادة والجمال . . أنسيت يوم التقيت بها فى حديقة الأندلس ، وكنت مهموم النفس ، ضيق القلب ، برماً بالحياة وبالناس ، تشمر بالحرمان يملأ عليك دنياك ، والظلام يسد دروب حياتك . . فلما مدت يدها اليك لتصافحك ، تبدل يأسك أملا ، وظلامك نوراً ، وضيق نفسك رحابة وسعة ونشوة . . ورأيت فى الزهر تلك الساعة معنى ابتسامتها الجميلة ، وفى النهر الرائق صفاء روحها الوادعة . . أتذكر حين جلست بجانبها على ذلك المقعد الوثير ، والنسيم الجميل يداعب صفحة النيل ، ويهز أعطاف النخيل . . والشراع الحالم يشق الماء برقة وهدوء . . لقد كانت يدها فى يدك ، وروحها تمازج روحك ، حين قالت لك بلهجتها الحلوة الساحرة : انى اشعر ـ يا حبيبى ـ بأن قلبى كهذا النهر وانت الذى تداعبه وحدك ، فيخفق لك حين تنشر عليه شراع قلبك وظلال روحك . . فابتسمت وقلت : ولكن ما قيمة الشراع من غير هذا النهر ! ! وذهبتما معاً فى أحاديث عذبة ، وعواطف رقيقة ، اتذكر . . اتذكر . . أم أن نزوتها الطائشة وخطيئتها الأخيرة ... هذه السحابة السوداء الصغيرة ، قد أخفت وراءها تلك الشمس الساطعة ، وهاتيك الأنوار الزاهرة ... وعفت على تلك الذكريات الحلوة ، والساعات الممتعة ... انها يا صاحبى رغم كل شىء تحمل لك فى قلبها الود الخالص ، وتغمرك بالحب العميق ... انها ـ رغم الخطيئة ـ حبيبتك وزوجتك ، فلا تتركها للايام ، ولا تكن قاسياً فى الانتقام ، فقد انزلقت قدمها وكادت تهوى إلى قرار سحيق ... أفليس من المروءة والوفاء أن تمد يدك اليها ، لتنقذها من الهلاك ، وتخلصها من أنياب الذئاب ... انك إن صنعت هذا بها رفعتها من الحضيض المظلم الموحش ، إلى دنيا من السمو والأنس والنور ... وان أنت القيت بها إلى الشارع فقد تركتها تهوى إلى قرار الجحيم ... جحيم الشارع الذى لا يعرف للانسانية والرحمة معنى ... انك بهذا تحطمها ، فتتحطم معها وتحطم أولادك ... فاستمع لندائى وأجب دعوتى فانى لك ناصح أمين ... وأذكر ـ أخيراً ـ حبك الماضى ، وأيامك الجميلة ، وذكرياتك السعيدة ... وأذكر أولادك ، فلذات كبدك ، وأشعة روحك ...

وسمعت ـ يا صاحبى ـ إلى صوت القلب ، وأنا كاسف البال ، حزين النفس ، مشتت الفكر ، ومثل أمامى بجراحه الدامية يذكرنى بالماضى الجميل ، والأيام الحلوة ... فكدت أصغى إليه ، وأبى بداءه ، لولا أنه بدا لعينى ذلك الشبح الرهيب ... شبح الخيانة ... وهنا ـ يا صاحبى ـ رأيت العقل قد ضاق ذرعاً بفلسفة القلب فانطلق ساخطا يزمجر فيقول : دع عنك كل هذا ، وأسكت هذا الشيطان الذى ينفث سمومه على لسان القلب ... ولا تكن خائر العزم جباناً ... ان هذا البيت قد خلق ليكون جنة وارفة الظلال ، مورقة الافنان ، تشيع فيها السعادة ، وتغمرها الطمأنينة ، ويملأ أرجاءها الجمال ... جمال الروح ... وجمال القلب وصفاء النفس وطهارتها

وهذه ـ زوجتك الخائنة ـ ليست إلا أفعى تختفى وراء هذا الملمس الناعم والثوب القشيب اللون ، والرقة والهدوء ـ أنياباً حادة تقطر السم الزعاف ... وقد جاءت لتجعل من جنتك هـــذه جحيما مظلماً يزخر بالشرور والآثام ، ويمتلئ بالمردة والشياطين ... أنهـا ـ لو انعمت النظر ـ نار لاهية اضرمها الشيطان بهذا الجسد الفاتر ، فاستحالت إلى أتم محرق ... يلتهم الكرامة والشرف ، ويبدد الراحة والامان ، ويحطم بقسوة وعنف هذا الأمل الذى عشت عليـه زمناً طويلا ، ورنوت اليه منذ أمد بعيد ... أجل ـ ياصاحبى ـ إنها تريد أن تلذع شرفك الرفيع وتقوض عرشك المنيع ، وتبدل الألفة والمودة والصفاء ، بالمراوغة والخيانة والشقاء ... فلا تتردد فى طردها من جنتك ، قبـل أن تحفر أوكارهـا ، وتميت ضحـاياها ... أن لك أولاداً تحبهم ، وتسعى لخيرهم ، وتبـذل من نفسك لاسعادهم ، فان أنت تركتها فى جنتك فقـــد حكمت على نفسك واولادك بالشقاء الدائم ، والعذاب الأليم : . وهذا مالا ارضاه لك ولا ترضاه لك كرامتك . فلا تبق هذه الافعى ـ ياصاحبى ـ لئلا تلد لك الشقاء والعـار والنار ... ...

وأخيراً — ياصاحبي — مكثت أياماً تنتهب لنفسي الوساوس والهموم ، وكدت اسحق من ثقل مالقيت . وحرت في أمر هذا الصراع ... الصراع العنيف بين القلب الوفي الرقيق يأبى — وهو يئن من جراحه — الا ان يستعيد ذكريات أيام الصفاء ، ليمحو بها مانقش في النفس من غم وضيق وألم دفين ... وبين العقل الذي يمسك بهذا القلب فيصهره وينهره ويصيح في وجهي تأثراً متمرداً : مالي أراك متردداً في تنفيذ وصيتي ... وسماع رأيي ... دعني أذكرك برأي ابيك ذلك الشيخ الذي عركته الأيام والتجارب فأدلى لك بالرأي الصواب حين قال لك : « فاذا لم تصلك بزوجك صلات من القربى ، ووشائج من الدم ، عبثت بشرفك ، وفرطت في كرامتك ، وبددت ثمار كدك » قلت في لهفة « ولكني » قال « ولكنك تحب فتاتك ولا عجب فهي قد اغترتك عن نفسك ، وخدعتك عن عقلك ، وسحرتك عن صوابك ؛ لأن المرأة المتعلمة كالثعلب تمكر بصاحبها حتى يقع في شباكها لا تليث أن تذيقه وبال غفلته وحمقه » .

وهذه نبوءة أبيك قد تحققت ، وأن الأيام لتثبت لك أنك ما زلت بحاجة إلى يد تساعدك ، ورأي يمينك ، وأب ينصح لك ، ويشير عليك ، وإن كنت قد تعلمت وتجاوزت طور اليفاعة إلى سن الشباب . لقد كان أبوك — يا صاحبي — بعيد النظر ، سديد الرأي ، ينظر من خلال تجاربه الكثيرة ، وشيخوخته الحكيمة ... وقد خشي عليك أن تعصف بك عاصفة من مكرها وسحرها ، وقد رأيته ليلة الزفاف ، ورأعتك منه هذه العبرات الحائرة في عينيه ، وتلك الغلالة من الهم والضيق وقد كست وجهه .

قلت لنفسك (واعجباً ! أفكان أبي الشيخ يرى بعيني تجاربه أن من تحت قدمي هاوية سحيقة أوشك أن أتزلق فأتردى فيها فلا يمسكني إلا القرار) أجل والله — ياصاحبي — إنه لذاك وقد كان أبوك يشفق عليك من هذا المصير السيء ، وهذا التردي الوبيء ، ألا فاعلم أن ما يراه الشيوخ بأبصارهم الكليلة ، ونظراتهم المستأنية لا يصل إليه الشباب بأبصارهم الحادة ، ونظراتهم السريعة ، لأن على بصر الشيوخ — وإن كان ضعيفاً — نوراً من الحكمة الرزينة ، والرأي السليم ، والفكرة الصائبة . وعلى أبصار الشباب — وإن كانت حديدة قوية — غشاوة من فورة الطيش ، وعبث القلب ، ونزوة الهوى .

. . .

قال لي صاحبي : وفي صباح ، يوم قارص البرد ممطر ، سمعت دقات خفيفة على الباب ، فعجبت من هذا الطارق المبكر ، الذي سابق الشمس في البكور فلم تلحقه ، غير عابىء بهذا البرد الشديد والمطر الكثير ، والرياح العاصفة . ولكنه — يا صاحبي ... أبي قد جاء من القرية يزورني ، ويطمئن عن حالي ، بعد أن انطوى على ألمه وأحزانه وقلقه من هذا الزواج الذي لم يرض به ولم يوافق عليه . أجل لقد فوجئت — يا صاحبي — بتلك الطلعة المهيبة وذلك الشيخ الوقور يخطو نحوي ، مسلماً علي ، يعانقني ويقبلني ، وقد قرأ في وجهي ما أعاني في نفسي من قلق وأسى . فبادهني بالسؤال عن زوجتي ؟! — آه يا ويلتي . كيف أجيبه ؟ ! . وماذا أقول ؟! . أأقول . إنها . ولماذا أتردد ! ! . أليس هو أبي ؟ ! . فلماذا أكتم عنه سري وأخفي عنه أمري ؟ ! . فقلت والأسى يعقد لساني ، والدمع يملأ مقلتي : إنها خائنة .

وذعر أبي ، وأخذته رعدة ، ورأيته قد أسند رأسه بذراعه ، شأنه حين يفكر في أمر خطير وسكت . وخلت — ياصاحبي — أن الكون كله يشخص بأبصاره نحوي ، ويحملق في بدهشة وتساؤل ، ويسخر مني ويهزأ بي ، ورأيت في هذا الصمت خطاباً مجلجلا يصدع الآذان ويرعب القلوب . ولما طال هذا الصمت خلت أن قلبي يكاد يصمت وأن روحي تكاد تزهق ، لولا أن أبي الشيخ قد أنقذني فرفع رأسه ونظر إلي نظرة حازمة صارمة يمازجها العطف والحنان . وقال : قلت لك — يا بني — وأعيد القول : « يا بني لست أخشى رأي الشباب في عقل الشيوخ . » أن المرأة المرأة — يا بني — لا تجد العقل إلا في الشارع » فدعها يا بني تجد هذا العقل الضائع . ولم أقل هذه المرة : « وهي تجده في العلم وفي المدرسة وفي الجامعة » . ولكني قلت بمرارة وألم . وأولادي — يا أبي — إنهم أحبائي الأعزاء فكيف أقتل السعادة والأمان في قلوبهم ؟ ! .

وهنا ثار أبي في وجهي قائلا : إنهم أولادك أنت ولستطيع